الدرس الثاني والعشرون
تاريخ التشريع الإسلامي

عرفنا أن الإمام أحمد نشأ في بغداد وكان رحالة في طلب العلم ولا يبالي في سبيل طلب العلم بأي مال وجهد يبذله وكان ميالاً إلى الحديث والرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد جلس بادئ الأمر إلى الفقه وانتقل إلى الحديث.

وتعرف على الإمام الشافعي في أول رحلة حج إلى بيت الله وقد أعجب به وأخذ عنه الفقه وأصوله وأكثر ما قيل إعجابه به هذه الحادثة التي يرويها إسحاق بن راوية يقول: كنت أنا والإمام أحمد وكان زميله سفر وعلم وجلسنا عند سفيان بن عيينة نأخذ حديث عمر بن دينار منه فقال لي الإمام أحمد قم حتى أريك رجلاً ما رأت عيناك مثله فقمت معه فذهب بي إلى فناء زم زم وقابلنا هناك شاباً تعلوا وجهه السمرة حسن السمة واسع العقل نير الذكاء فجلسنا إليه فقال له الإمام أحمد يا أبا عبد الله هذه أبي يعقوب فرحب بي وجلسنا نتذاكر فتفجر لي عن علم غزير وبصر حين قلت للإمام أحمد قم بنا إلى الرجل الذي حدثتني عنه فقال لي هذا هو قال له لقد كنا عند سفيان بن عيينة فأقمتني من عنده وما ظننت إلا أنك ستجلسني عند رجلاً مثل الزهري وما عرفت أنك ستجيء بي إلى شاب حدث السن فقال له يا أبا يعقوب (إنني لم أرى قط مثل هذا الرجل وإن هذا كنز علم فالزمه وخذ منه) هذه الحادثة تدل على مدى إعجاب الإمام أحمد بالإمام الشافعي وعلى أن الإمام أحمد لم يكن رجل حديث فقط بل مجلس فقه أيضاً لأن مجلس الإمام الشافعي كان مجلس فقه ومجلس أصول فقه ولكنه كان أكثر ميلاً للحديث من غيره.

ومما يدل على ذلك أن الإمام أحمد بقي أربعين سنة يدعوا الله عز وجل للشافعي وكان يقول (إن الله عز وجل يبعث على رأس كل مئة سنة من يجدد لهذه الأمة دينها) فيقول لقد أرسل الله عمر بن عبد العزيز ليجدد لهذه الأمة دينها على رأس المئة الثانية وأرجوا أن يكون الشافعي هو الذي أرسله الله في المئة التي تليها ليجدد لهذه الأمة دينها.

يقول الإمام أحمد لقد حرمت لقاء الإمام مالك فعوضني الله عز وجل عنه سفيان بن عيينة لاحظوا تعظيم الأئمة لبعضهم لقد تتلمذوا على بعض الإمام أحمد تتلمذ على الإمام الشافعي في الفقه وأصوله وكان الإمام الشافعي يأخذ الحديث عن الإمام أحمد وكان يعتبره المرجع الأول له إن أشكل عليه أمر في علم الحديث وكان يقول له (إذا صح عندكم الحديث فأخبرني) يقول الشافعي:

قالوا يزورك أحمد وتـزوره قلت الفضائل لا يبارح منزله

إن زارني فبفضله وإن زرته لفضله فالفضـل في الحالين له

فقد كان مضرب المثل في هذه المشاعر السامية وكلام الشافعي عن الإمام أبو حنيفة إنما من يلبسون لباس أهل العلم ينسبون أنفسهم له ولا يستطيعون التعبير عن تعظيمهم لإمامه إلا بالقول والتجريح والحط من منزلة الأئمة الآخرين هذا عجيب لأن هؤلاء الأئمة أولى بأن يجرحوا بعضهم بعضاً ولكن كل واحد منهم يجعل نفسه أرضاً للآخرين ونحن أقل من أن نكون تلاميذ لهم إن في العلم أو الذكاء أو الأخلاق، علينا أن ندرس تراجمهم لعل ذلك يحملنا على الأدب في حقهم.

الإمام أحمد على الرغم من انتشار صيته وخبره في الآفاق لم يجلس للفتية إلا بعد الأربعين من عمره وتسأل العلماء عن السبب بعضهم علل ذلك تعليلاً يتناسب مع ما عرف به من شدة التمسك بالسنة وأهداب السيرة النبوية العطرة، قالوا: إن الإمام أحمد رأى أن الله عز وجل أكرم الرسول بالنبوة بعد الأربعين وقد

اتجه إلى الناس يعلمهم ويرشدهم بعد الأربعين فكان الإمام أحمد رحمه الله كان يرى نفسه أقل من أن يجلس مجلس الوراثة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم إنه رأى نفسه مضطراً لذلك قال: إذا كان ولا بد فلا ينبغي أن أجلس مجلساً جلسه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الأربعين وأكون أنا قبل هذا السن ولعل معرفتنا فيما بعد بورع الإمام أحمد وصلاحه يؤيد هذا القول وعندما جلس الإمام أحمد مجلسه للدرس والرواية والفتوى كان من عاداته أن يحمل كتبه يأتي بها إلى مجلسه ولكنه كان لا يفتتح موضوعات حتى يسأل فإن سأل تسلسل العلم على لسانه وإن لم يسأل بقي صامتاً يسبح الله عز وجل وينتظر من يسأله، وعندما يسأل ويفصح ينظر إن كان هناك من يكتب الحديث أيديه ومن يكتب الفقه والمسائل وأقواله منعه وأنكر عليه ذلك.

❖ **أخلاقه:** كان نسيجاً واحداً في هذا فإذا جلس في الدرس سادة الهيبة والإجلال والوقار والسكينة إلى جانب التواضع ولم يمكن يمزح إطلاقاً حتى أن هذه الطبيعة تسيطر على كل مجلس يكن فيه حتى أن شيوخه لم يكونوا يمزحون احتراماً له وإجلالاً لمكانته ولهيبة شخصه، يروى عن أحد شيوخه يزيد بن هارون رحمه الله تعالى أنه في مجلس درسه مزح بمناسبة فتنحنح الإمام أحمد ولم يكن يزيد قد تنبه لوجوده في الحلقة فوضع يده على جبينه وقال ألا أخبرتموني أن أحمداً هنا حتى لا نمزح، هذا ليس غلظة أو فظاظة في طبعه وشخصه لا بل كان متواضعاً جداً وكان يرى الناس خيراً منه ولكن الذي يدفعه إلى عدم المزاح شعوراً يمتلك نفسه من إجلالاً إلى الله وخوف منه وتعظيماً له.

❖ وكان الإمام أحمد بعيداً عن الخوض في البدع والفلسفة وعلم الكلام ومل ما ظهر من فتن في عصره حتى قال البعض عنه (إنه تابعياً تأخر في عصره لأنه كان يعيش في هذا العصر في سلوكه وكلامه وعمله وتصرفاته وروحه روح صحابياً أو تابعي لذلك عرف عنه كراهية مناقشة الفرق وأصحابه والخوض في

علم الكلام (الحارث المحاسبي) كان معاصراً له ومضرب المثل في الزهد والورع والتصوف الحقيقي والابتعاد عن الشوائب والأدران ومع ذلك فقد كان الإمام أحمد يكره من الحارث أنه يخوض في مسائل البعد ويناقش أهلها ويتكلم معهم ويجالسهم ولكن الإمام أحمد بعيداً عن هذا.

وهنا لدينا سؤالين:

1- هل للإمام أحمد حجة في هذا.

2- السبب لهذا.

أما السبب فباختصار نقول الإمام أحمد كان في زمان الدولة العباسية والحضارة الفارسية أو غير العربية قد تسللت إلى الجزيرة العربية والعالم الإسلامي بصورة كافة تسلل إليه من الناحية الاجتماعية الناحية السياسية فالحكم العباسي إن نهض على دعائم وسواعد الفرس وإن كان هارون الرشيد قد أراد أن يعيد الأمر إلى صفائه السابق ولكن سرعان ما عاد الأمر إلى سابقه ومن آثار ذلك ظهور كثير من الأفكار غير العربية في نطاق الفكر الإسلامي وظهور طفيليات من الشوائب الفلسفية بسبب ترجمة الفلسفة اليونانية وظهور كثير من الفرق المختلفة وكلها شيء لم يكن موجوداً من قبل.

الإمام أحمد صاحب محبة شديدة لرسول الله ولما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وللسنة النبوية الصافية عن الشوائب وكان يبذل جهداً شديداً لكي يجعل حياته وحياة المجتمع جهد استطاعته مشدودة إلى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأى نفسه ورأى المجتمع حوله على هذا الشكل وهنا شيء يذكره علماء النفس واسمه رد الفعل فقد وجد عنده إلى جانب تقواه وورعه شيء اسمه رد الفعل فقد تقزز واشمئز من هذه العادات والبدع والأمور المستحدثة والتنطع في أمور الدين بدون ضرورة.

ردة الفعل تمثل في فراره الشديد من كل هذه الأمور وفي أن يفضل أن يحيى حياة مغلقة لم تكن مفتوحة على الناس من حوله ما دام يرى هذه المظاهر البعيدة عن عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجب أن لا ننسى أن الإمام أحمد يعيش في ما نسميه نحن منعطفاً فالإنسان عندما يسير بشكل مستقيم لا يشكل مشكلة ولكن يعيش على منعطف فهو يودع خطاً مستقيم ويستقبل منحي والحياة هكذا تأخذ الناس من وضع سابق وتلحقهم بوضع لاحق فعصر الإمام أحمد مع شيء مما جاء قبله وشيء مما جاء بعده كان منعطفاً في عصره كانت تترجم الفلسفة الفارسية واليونانية والروحانية وتوضع على مائدة البحث بعض الإشكالات حتى زالت بعد أن استقرت الأمور وتوضحت الصورة ولعل الإمام أحمد إن وجد بعد هذا المنعطف لوجدنا شيئاً آخر ولما اتخذ موقف الفار بل أخذ وأعطى ولهذا لم تتوضح الرؤيا للفلسفات إلا بعد أن فتح الباب لها وبحثت بشكل كامل وظهر عقمها وتخبطها وتناقضها ولولا هذا لحصلت أمور لم تكن لتحمد عاقبتها والصورة واضحة من خلال نظرة لتاريخ تلك المرحلة عندما كانت الفلسفات تدخل من الشقوق والنوافذ إلى العالم الإسلامي بدون إذن رسمي في هذا الجو كان تأثير الفلسفة تأثيراً سلبياً وأخذ بها كثير من الناس ومن هنا ظهر المعتزلة وفرق أخرى فقد ذهبت المعتزلة وهذه الفرق ضحية لهذه التسلل الخفي.

(أبو هذيل العلام) كان يدرس اليونانية والفلسفة فكانت النتيجة أن هذه الفلسفة قد أفسدت عليه عقله وتخطفته وهو رأس من رؤوس المعتزلة (بشر المريسي) كذلك.

فالذي فعلوه ليكافحوا كما تقول القاعدة الاقتصادية فتحوا الباب لها بعد أن عجزوا عن منعها ووضعت على مائدة البحث مثل الغزالي وأبو بكر الباقلاني فحاكموا الفلسفة اليونانية اعتماداً على قواعد العلم التي أخذوها من كتاب الله

وطبقوا الحكمة القائلة خذ الحكمة ولا تبالي من أي وعاء خرجت وعندئذ قضي على الفلسفة بعد أن دخلت من الباب الطبيعي وترجمت ترجمة كاملة بعد أن قضت هي على الكثير عندما تسللت، هذا هو سبب موقف الإمام أحمد والحقيقة هو ليس فتوى فرض فيها الإمام أحمد على الجميع إتباعها فالأئمة الثلاثة والأوزاعي وعبد الله بن المبارك وغيرهم لم يتبعوها وكان الحارث المحاسبي يقول يا سيدي هؤلاء مبتدعة وينبغي أن نرد عليهم ألسنتهم على عامة الناس فقال له ألسنا نرد عليهم بدعتهم بلسانك اصمت هي حالة علوية اختارها الله للإمام أحمد وهي حالة خاصة به إذاً هذا اجتهاد للإمام وطبع خاص تميز به.

سئل الشافعي عن رجل يستلم القضاء فستبرأ لدينه ولنفسه والمستشار ينبغي أن يكون صادقاً فرشح الإمام أحمد فلما سمع ذلك قال له أنا أجلس في مجلس علمك ليزيدني العلم زهداً في الحياة وأنت تطلبني للقضاء والله إن كدت لترك درسك فقال الإمام الشافعي فخجلت البصرة منتجع المعتزلة وبادية البصرة فانتشر فيها الخوارج ولكنه كان يحلق مع الصحابة ويعيش كما كانوا.